كامل كيلاني
الجواد الطيار

الْجَوادُ الطَّيَّارُ

الْجَوادُ الطَّيَّارُ

تأليف
كامل كيلاني

كلمات | هنداوي

الْجَوادُ الطَّيَّارُ

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٢٧١
تدمك: ٠ ٩٧ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + **فاكس:** ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ	٧
الْفَصْلُ الثَّانِي	١٣
الْفَصْلُ الثَّالِثُ	١٧
الْفَصْلُ الرَّابِعُ	٢٣
الْفَصْلُ الْخامِسُ	٢٩

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

(١) عَيْنُ الدُّمُوعِ

لَعَلَّكَ تَعْجَبُ مِنْ هَذا الْعُنْوانِ — أَيُّها الطِّفْلُ الْعَزِيزُ — فَإِنَّ عَيْنَ الْماءِ لا تَتَأَلَّفُ مِنَ الدُّمُوعِ أَبَدًا!

وَلكِنَّ الْقُدَماءَ الَّذِينَ كانُوا يَعِيشُونَ فِي بِلادِ الْيُونانِ — مُنْذُ آلافِ السِّنِينَ — كانُوا يُطْلِقُونَ هَذا الاسْمَ عَلَى إِحْدَى الْعُيُونِ الصَّافِيَةِ الَّتِي تَنْبُعُ فِي سَفْحِ جَبَلٍ صَغِيرٍ مِنْ جِبالِ الْيُونانِ، وَإِنَّما أَطْلَقُوا عَلَيْها ذَلِكَ الاسْمَ، لِأَنَّ بَعْضَ أَساطِيرِهِمْ (قِصَصِهِمُ الْخَيالِيَّةِ الْقَدِيمَةِ جِدًّا) قَدْ حَدَّثَتْهُمْ أَنَّ امْرَأَةً حَسْناءَ كانَتْ جالِسَةً فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، وَإِلَى جانِبِها وَحِيدُها (وَلَدُها الَّذِي لَيْسَ لَها غَيْرُهُ) فَأَصابَهُ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ الصَّيْدِ، فَقُتِلَ مِنْ فَوْرِهِ (فِي الْحالِ).

وَزَعَمَتِ الْأُسْطُورَةُ (أَخْبَرَتِ الْقِصَّةُ) أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّ الْحَزِينَةَ الْمَكْلُومَةَ (الْجَرِيحَةَ) جَزِعَتْ عَلَى وَلَدِها جَزَعًا لا يُوصَفُ: (جاوَزَ حُزْنُها كُلَّ حَدٍّ)، وَبَكَتْهُ لَيْلَ نَهارَ بُكاءَ الْأُمِّ الثَّكْلَى (الَّتِي فَقَدَتْ وَلَدَها) حَتَّى تَحَوَّلَتْ دُمُوعُها الْغَزِيرَةُ (الْكَثِيرَةُ) عَيْنَ ماءٍ صافِيَةً، مِنْ كَثْرَةِ ما تَذْرِفُ (تَسِيلُ) مِنْ عَيْنَيْها! مِنْ أَجْلِ هَذا أَطْلَقَ عَلَيْها سُكَّانُ تِلْكَ الْبِقاعِ النَّائِيَةِ (الْبَعِيدَةِ): «عَيْنَ الدُّمُوعِ». وَأَصْبَحَ هَذا الاسْمُ عَلَمًا عَلَيْها.

(٢) مُحاوَرَةُ الْفارِسِ

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ مَرَّ بِتِلْكَ الْعَيْنِ الصَّافِيَةِ، فَتًى مِنْ فِتْيانِ اليُونانِ، فَرَأَى بِجِوارِها شَيْخًا كَبِيرًا مُسِنًّا يَزْرَعُ الْأَرْضَ، وَرَأَى فَتاةً فِي رَيْعانِ الصِّبا تَمْلأُ جَرَّتَها (وِعاءَها الْفَخَّارَ) ماءً عَذْبًا، وَإِلَى جانِبِها صَبِيٌّ ذَكِيٌّ نَجِيبٌ، تَلُوحُ (تَظْهَرُ) عَلَيْهِ أَماراتُ الشَّجاعَةِ (عَلاماتُها) وَالْإِقْدامِ.

فَاسْتَأْذَنَ الْفَتَى الْيُونانِيُّ تِلْكَ الْفَتاةَ فِي أَنْ تَسْقِيَهُ مِنْ جَرَّتِها، فَأَذِنَتْ لَهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، وَصَفاءِ سَرِيرَةٍ.

وَلَمَّا ارْتَوَى (شَبِعَ مِنَ الشُّرْبِ) شَكَرَ لِلْفَتاةِ صَنِيعَها، ثُمَّ قالَ لَها مُبْتَهِجًا: «ما أَحْسَبُنِي شَرِبْتُ — طُولَ حَياتِي — ماءً أَعْذَبَ مِنْ ماءِ هَذِهِ الْعَيْنِ الصَّافِيَةِ!

بَلْ ما أَحْسَبُنِي سَأَشْرَبُ — فِي الْمُسْتَقْبَلِ — ماءً أَعْذَبَ مِنْ مائِها؛ فَهَلْ تَذْكُرِينَ لِي اسْمَها؟»

فَقَصَّتْ عَلَيْهِ الْفَتاةُ أُسْطُورَةَ الْعَيْنِ الصَّافِيَةِ الَّتِي قَصَصْتُها عَلَيْكَ، وَذَكَرَتْ لَهُ اسْمَها الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ، وهُوَ «عَيْنُ الدُّمُوعِ»، وَبَيَّنَتْ لَهُ سَبَبَ تَسْمِيَتِها بِهَذا الاسْمِ الْغَرِيبِ.

فَدَهِشَ الْفَتَى لِما سَمِعَ، وَقالَ لَها مُتَعَجِّبًا: «لَقَدْ وَصَلْتُ اللَّيْلَ بِالنَّهارِ، حَتَّى بَلَغْتُ هَذِهِ الْعَيْنَ. وَما كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ فِي مائِها تِلْكَ الْعُذُوبَةَ النَّادِرَةَ!»

(٣) الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ

وَرَأَى الشَّيْخُ فِي يَدِ الْفارِسِ لِجامَ فَرَسٍ مِنَ الذَّهَبِ الْخالِصِ الْوَهَّاجِ (اللَّامِعِ) مُحَلًّى بِالْأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ (الْياقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ والْمَرْجانِ وَنَحْوِها).

فَقالَ لَهُ: «أَيُّها الْفارِسُ الْفَتَى، لِماذا تَحْمِلُ هَذا اللِّجامَ؟!

تُرَى: هَلْ فَقَدْتَ فَرَسًا، فَجِئْتَنا باحِثًا عَنْهُ؟»

فَقالَ لَهُ الْفارِسُ: «كَلَّا يا سَيِّدِي، ما فَقَدْتُ فَرَسًا، وَلٰكِنَّنِي جِئْتُ بِلادَكُمْ لِأَبْحَثَ عَنِ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ (الْفَرَسِ الَّذِي لَهُ أَجْنِحَةٌ)؛ فَقَدْ أَنْبَأَنِي الرُّوَاةُ الصَّادِقُونَ أَنَّهُ يَقْضِي جُلَّ وَقْتِهِ (أَكْثَرَهُ) طائِرًا مُحَلِّقًا (مُرْتَفِعًا مُسْتَدِيرًا فِي طَيَرانِهِ) عَلَى قِمَّةِ هَذا الطَّوْدِ الشَّامِخِ (رَأْسِ الْجَبَلِ الْعالِي).»

فَعَجِبَ الْفَلَّاحُ مِنْ كَلَامِ الْفارِسِ، وَتَرَكَهُ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِتَحْقِيقِ أَوْهامِهِ، وَيَقْضِي عُمْرَهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمُحالِ (الَّذِي يَسْتَحِيلُ الْحُصُولُ عَلَيْهِ).

(٤) وَصْفُ الْجَوادِ

لَعَلَّكَ أَيُّها الْقارِئُ الْعَزِيزُ، قَدِ اشْتَقْتَ إِلَى سَماعِ شَيْءٍ عَنْ ذَلِكَ الْجَوَادِ الْعَجِيبِ.

وَإِنِّي مُجِيبُكَ إِلَى طِلْبَتِكَ، فَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى نَفْسِي مِنْ تَحْقِيقِ ما تَطْلُبُ: كانَ ذَلِكَ الْجَوادُ — فِيما حَدَّثَتْنا الْأُسْطُورَةُ — يَغْلِبُ عَلَى لَوْنِهِ الْبَياضُ؛ فأَطْلَقُوا عَلَيْهِ لَقَبَ «الْأَشْهَبِ»، وَكانَ ذا جَناحَيْنِ؛ فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ لَقَبَ «الْمُجَنَّحِ» وَكانَ — إِلَى ذَلِكَ — يَسْبِقُ فِي طَيَرانِهِ النُّسُورَ!

وَقَدْ عاشَ سِنِينَ عِدَّةً فِي عُزْلَةٍ (فِي انْفِرادٍ وَوَحْدَةٍ) سَعِيدَةٍ، بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ، يَنامُ لَيْلَهُ فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ، وَيَقْضِي جُلَّ نَهارِهِ (أَكْثَرَهُ) طائِرًا فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ (أَوْساطِهِ)؛ فَتَنْعَكِسُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ عَلَى جَناحَيْهِ، فَيَنْبَعِثُ مِنْهُما — لِذَلِكَ — شُعاعٌ فِضِّيٌّ يَسْحَرُ الْأَلْبابَ (يَفْتِنُ الْعُقُولَ).

(٥) فِي الصَّيْفِ

وَمَتَى حَلَّ فَصْلُ الصَّيْفِ هَبَطَ الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ إِلَى الْأَرْضِ، وَطَوَى جَناحَيْهِ الْفِضِّيَّيْنِ، وأَسْلَمَ قَدَمَيْهِ لِلرِّيحِ، وَانْطَلَقَ يَعْدُو (يَجْرِي) فِي السُّهُولِ وَالْوِدْيانِ، فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخاطِفِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ» الَّتِي يَنْبُعُ مِنْها نَهْرُ الدُّمُوعِ؛ فَيَشْرَبَ حَتَّى يَرْتَوِيَ، وَيَتَمَرَّغَ بَعْضَ الْوَقْتِ عَلى حَشائِشِها الْخُضْرِ، وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ (مَسْرُورٌ) بِما يَفْعَلُ، لا يُكَدِّرُ عَلَيْهِ صَفْوَهُ أَيُّ مُكَدِّرٍ، وَلا يُحِسُّ بِأَيِّ ضِيقٍ أَوْ ضَجَرٍ، وَقَدِ امْتَلَأَ رِيًّا.

وَلكِنَّ الْجَوادَ الْمُجَنَّحَ كَفَّ عَنْ هَذِهِ الْعادَةِ، مُنْذُ سَنَواتٍ قَلائِلَ؛ فَأَصْبَحَ لا يَزُورُ تِلْكَ الْأَصْقاعَ (النَّواحِيَ) إِلَّا فِي أَوْقاتٍ مُتَباعِدَةٍ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ — لِذَلِكَ — أَعْيُنُ الشَّبابِ وَالْأَحْداثِ (الْأَطْفالِ) إِلَّا مُصادَفَةً وَاتِّفاقًا، وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَراهُ إِلَّا لِمامًا (إِلَّا نادِرًا جِدًّا).

(٦) حَدِيثُ الْفَتاةِ

وَقَدْ سَأَلَ الْفارِسُ تِلْكَ الْفَتاةَ: «هَلْ رَأَيْتِ الْأَشْهَبَ الْمُجَنَّحَ، ذَلِكَ الْجَوادَ الْعَجِيبَ؟»

فَقالَتْ لَهُ: «لا أَذْكُرُ أَنَّنِي رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ واحِدَةٍ طَوالَ حَياتِي، وَلَسْتُ واثِقَةً مِمَّا رَأَيْتُ، وَلا مُتَثَبِّتَةً مِمَّا بَدَا (ظَهَرَ) لِعَيْنَيَّ، لِأَنني لَمْ أُحَدِّقْ (لَمْ أُدَقِّقْ) بِنَظَرِي فِيهِ.

وَغايَةُ ما أَذْكُرُهُ أَنَّنِي رَأَيْتُ شَيْئًا يَلُوحُ (يَظْهَرُ) فِي الْفَضاءِ مُرْتَفِعًا إِلَى السَّماءِ، وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِطائِرٍ أَبْيَضَ كَبِيرٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّهُ يَكُونُ الْأَشْهَبَ الْمُجَنَّحَ الَّذِي طَالما سَمِعْنا بِهِ.»

وَلَمْ أَكُنْ — حَقِيقَةً — مُتَأَكِّدَةً مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كُنْتُ أَظُنُّهُ، وَلا أَتَيَقَّنُ مِنْهُ، وَما رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.»

(٧) حَدِيثُ الصَّبِيِّ

فَالْتَفَتَ الصَّبِيُّ إِلَى الْفَارِسِ الْتِفاتَةَ الْواثِقِ، قائِلًا: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ يا سَيِّدِي، مَرَّاتٍ كَثِيرَةً فِي أَوْقاتٍ عِدَّةٍ، وَأَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، وَكُنْتُ سَعِيدًا — حقَّ السَّعادَةِ — بِهَذِهِ الرُّؤْيَةِ، مُمْتَنًّا بِها كُلَّ الامتِنانِ، وَكانَ آخِرُ يَوْمٍ لَقِيتُهُ أَمْسِ!»

فَقالَ الْفارِسُ لِلصَّبِيِّ: «مَرْحَى لَكَ (ما أَحْسَنَ قَوْلَكَ) أَيُّها الصَّبِيُّ الذَّكِيُّ! فَحَدِّثْنِي أَيُّها الْعَزِيزُ، كَيْفَ لَقِيتَهُ؟!»

فأَجابَهُ الصَّبيُّ باسِمًا: «لَقَدْ أَلِفَتْ قَدَماي أَنْ تَسِيرا إِلَى هَذِهِ الْعَيْنِ. وَلَيْسَ أَحَبَّ إِلَى نَفْسِي مِنْ صُنْعِ سُفُنٍ وَمَراكِبَ مِنَ الْوَرَقِ الْمُقَوَّى، وَوَضْعِها فِي ماءِ هَذِهِ الْعَيْنِ، وَالتَّمَتُّعِ بِرُؤْيَتِها عائِمَةً عَلَى سَطْحِ الْماءِ.

وَكَثِيرًا ما رَأَيْتُ — فِي أَثْناءِ اللَّعِبِ — بَرِيقَ ذَلِكَ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ الَّذِي تَسْأَلُ عَنْهُ.

وَلَطالَما وَدِدْتُ (كَثِيرًا ما تَمَنَّيْتُ) وَأَحْبَبْتُ حُبًّا جَمًّا (لا نِهايَةَ لَهُ) لَوْ هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَحَمَلَنِي عَلَى ظَهْرِهِ وَطَارَ بِي إِلَى الْقَمَرِ!

لكِنَّنِي يَئِسْتُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ، لِأَنَّنِي رَأَيْتُهُ يَطِيرُ، إِذا سَمِعَ مِنِّي أَقَلَّ صَوْتٍ، أَوْ بَدَرَتْ مِنِّي أَيْسَرُ حَرَكَةٍ.

وَلَيْتَنِي — إِذْ تَمَنَّيْتُ ذَلِكَ — ما صَدَرَ مِنِّي صَوْتٌ وَلا حَرَكَةٌ!»

فَشَكَرَ الْفَارِسُ لِلصَّبِيِّ ما أَفادَ «ما اسْتَفادَ» مِنْهُ.

وَأُعْجِبَ بِدِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ وَحُسْنِ انْتِباهِهِ، ثُمَ وَدَّعَهُ، وَوَدَّعَ الْفَتاةَ، مَسْرُورًا بِما عَرَفَهُ مِنَ الْحَقائِقِ النَّفِيسَةِ.

(٨) صَبْرُ الْفارِسِ

ظَلَّ الْفارِسُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — يَخْتَلِفُ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ» (يَذْهَبُ إِلَيْها فِي أَوْقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَيَتَرَدَّدُ عَلَيْها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ)، وَيَقْضِي أَكْثَرَ يَوْمِهِ رافِعًا عَيْنَيْهِ إِلَى السَّماءِ تارَةً، ناظِرًا إِلَى الْماءِ تارَةً أُخْرَى، آمِلًا أَنْ يَرَى الْجَوادَ طائِرًا فِي الْجَوِّ، أَوْ يَرَى صُورَتَهُ فِي الْماءِ، وَهُوَ أَمَلٌ ظَلَّ يُداعِبُهُ أَيَّامًا عَدِيدَةً، وأَزْمِنَةً مَدِيدَةً.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ بِهِ وَهُوَ لا يَمَلُّ (يَسْأَمُ وَلا يُطِيقُ) الانْتِظارَ، وَلا يَضْجَرُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ الصَّبْرَ مَحْمُودُ الْعاقِبَةِ، وَأَنَّ دَرْكَ الْعَظائِمِ (بُلُوغَها)، وَالظَّفَرَ (الْفَوْزَ) بِتَحْقِيقِها لا يَتِمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ؛ إِذْ بِالصَّبْرِ يَبْلُغُ الْإِنْسانُ ما يَصْبُو إِلَيْهِ (ما يُرِيدُ).

وَكَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يَسْخَرُونَ (يَهْزَءُونَ) مِنْهُ، كُلَّما رَأَوْهُ يَتَرَدَّدُ عَلَى هَذا الْمَكانِ، يُمَنِّي نَفْسَهُ بِدَرْكِ الْمُحالِ، وَيَحْسَبُونَه مَخْدُوعًا يَجْرِي وَراءَ الْأَوْهامِ، وَلكِنَّهُ كانَ فِي وادٍ، وَأَهْلُ قَرْيَتِهِ فِي وادٍ آخَرَ!

(٩) الرَّفِيقُ الْأَمِينُ

وَكانَ ذَلِكَ الصَّبِيُّ الشُّجاعُ الذَّكِيُّ الَّذِي حَدَّثْتُكَ حَدِيثَهُ، يَقْضِي أَوْقاتَ فَراغِهِ وَلَهْوِهِ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — إِلَى جانِبِ الْعَيْنِ، وَيُهَوِّنُ عَلَى ذَلِكَ الْفارِسِ مُهِمَّتَهُ الشَّاقَّةَ، وَيُسَلِّيه، ويُسَرِّي (يُذْهِبُ) عَنْ نَفْسِهِ ما يَلْقاهُ مِنْ عَبَثِ الْعابِثِينَ بِهِ، وَسُخْرِيَةِ السَّاخِرِينَ مِنْهُ. وَكانَ لَهُ هَذا الصَّبِيُ — فِي وِحدَتِهِ — نِعْمَ الرَّفِيقُ الْأَمِينُ، وَنِعْم الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ.

الْفَصْلُ الثَّانِي

(١) قِصَّةُ التِّنِّينِ

كانَ بَطَلُ هَذِهِ الْقِصَّةِ — أَعْنِي ذَلِكَ الْفارِسَ الَّذِي شَغَلْتُكَ بِالْحَدِيثِ عَنْهُ — يَعِيشُ فِي بَلَدٍ مِنْ بُلْدانِ «آسْيا»، وَكانَ مَشْهُورًا بَيْنَ قَوْمِهِ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجاعَةِ، مَعْرُوفًا بالانْتِصارِ فِي كُلِّ مَوْقِعَةٍ، وَالْفَوْزِ عَلَى كُلِّ فارِسٍ مِنْ فُرْسانِ زَمَنِهِ.

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ ظَهَرَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْطِنِهِ تِنِّينٌ كَبِيرٌ (ثُعْبانٌ هائِلُ الْجِسْمِ)، لَمْ يَرَ لَهُ أَحَدٌ شَبِيهًا فِي عِظَمِهِ وَضَخامَتِهِ، وَشِدَّةِ بَأْسِهِ وَأَذِيَّتِهِ.

وَكانَ الْأَهْلُونَ يُطْلِقُونَ عَلَى ذَلِكَ التِّنِّينِ اسْمَ «الْأَصَلَةِ» (الدَّاهِيَةِ مِنْ دَوَاهِي الْحَيَّاتِ)، لِقُوَّتِهِ، وَكِبَرِ حَجْمِهِ، وَبَشاعَةِ مَنْظَرِهِ، وَكانَ ذَلِكَ التِّنِّينُ الْهائِلُ يَقْذِفُ اللَّهَبَ (النَّارَ)، وَيَرْمِي بِالسُّمِّ مِنْ فِيهِ عَلَى كُلِ دانٍ (قَرِيبٍ) وَبَعِيدٍ مِنَ النَّاسِ رَمْيَةً قاتِلَةً، فَيُمَوِّتُهُمْ، وَيُحَرِّقُ أَجْسادَهُمْ.

(٢) وَصْفُ «الْأَصَلَةِ»

كانَ التِّنِّينُ الْهائِلُ غَرِيبَ الشَّكْلِ، لا يُشْبِهُ أَيَّ ثُعْبانٍ مِنْ ثَعابِينِ الْأَرْضِ الَّتِي نَسْمَعُ بِها أَوْ نَراها، فَقَدْ كانَ لَهُ ذَنَبٌ (ذَيْلٌ) ثُعْبانٍ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رَأْسٌ واحِدٌ، بَلْ كانَ لَهُ ثَلاثَةُ رُءُوسٍ غايَةٌ فِي الضَّخامَةِ، يَخْتَلِفُ شَكْلُ كُلٍّ مِنْها اخْتِلافًا كَبِيرًا؛ فَأَوَّلُها: رَأْسُ أَسَدٍ، وَثانِيها: رَأْسُ ماعِزَةٍ، وَثالِثُها: رَأْسُ تِنِّينٍ!

وَكانَ فِي كُلِّ رَأْسٍ مِنْ هَذِهِ الرُّءُوسِ الثَّلاثَةِ فَمٌ وَأَنْفٌ وَعَيْنانِ! كانَ ذَلِكَ التِّنِّينُ — الَّذِي يُسَمُّونَهُ «الْأَصَلَةَ»، كَما حَدَّثْتُكَ — يُخْرِجُ السُّمَّ وَاللَّهَبَ مِنْ أُنُوفِهِ الثَّلاثَةِ، وَيَقْذِفُ بِهِما إِلَى أَقْصَى مَدًى (أَبْعَدِ غايَةٍ)، فَيُحْدِثُ هَلَعًا وَذُعْرًا لَدَى كُلِّ الْخَلائِقِ!

(٣) فِي حَضْرَةِ الْمَلِكِ

هَذِهِ أَيُّها النَّاشِئُ الْعَزِيزُ، هِيَ قِصَّةُ «الْأَصَلَةِ»، وَما أَحْدَثَهُ مِنَ الْأَضْرارِ وَالْأَخْطارِ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ الْوادِعِ (الْمُطْمَئِنِّ الْهانِئِ) الْأَمِينِ، وَإِنَّها لَقِصَّةٌ تَدُلُّ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ.

وَقَدْ فَزِعَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَهُ مِنْ أَنْباءِ هَذا التِّنِّينِ الْهائِلِ؛ فاسْتَدْعَى إِلَيْهِ بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

وَكانَ الْأَهْلُونَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ لقب «فارِسِ الْفَوارِسِ».

ولَمَّا مَثُلَ (وَقَفَ) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، قالَ لَهُ الْمَلِكُ: «لَقَدْ عَلِمْتَ يا «فارِسَ الْفَوارِسِ» ما أَحْدَثَهُ «الْأَصَلَةُ» مِنْ أَخْطارٍ وَأَضْرارٍ فِي هَذِهِ الْبِلادِ الْوادِعَةِ (الْمُطْمَئِنَّةِ الْهانِئَةِ). وَلَيْسَ فِي الدُّنْيا فارِسٌ سِواكَ يَجْرُؤُ عَلَى مُنازَلَةِ هَذا الْعَدُوِّ اللَّدُودِ (الشَّدِيدِ الْعَداوَةِ والْخُصُومَةِ)، وَالْقَضاءِ عَلَيْهِ، وَإِنقاذِ الْأَهْلِينَ مِنْ مَصائِبِهِ وشُرُورِهِ، فَماذا أَنْتَ قائِلٌ؟»

فَقالَ لَهُ «فارِسُ الْفَوارِسِ»: «الرَّأْيُ ما تَراهُ، أَيُّها الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، وَسَأَكُونُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكَ بِي، وَلَنْ أَدَّخِرَ فِي تَنْفِيذِ رَغْبَتِكَ جُهْدًا، وَلا بُدَّ لِي مِنْ قَتْلِ «الْأَصَلَةِ»، أَوْ أَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ!»

(٤) اللِّجامُ الْمَسْحُورُ

خَرَجَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» مِنْ حَضْرَةِ الْمَلِكِ، وَقَدْ مَلَأَهُ كَلامُهُ هِمَّةً وَنَشاطًا، وَأَقْسَمَ عَلَى قَتْلِ «الْأَصَلَةِ»، وَلَوْ كَلَّفَهُ ذَلِكَ فُقْدانَ حَياتِهِ.

وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَرَأَى أَنَّهُ مِنَ الْمُحالِ عَلَيْهِ أَنْ يَلْقَى «الأَصَلَةَ» راجِلًا (غَيْرَ راكِبٍ)؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ خَطَرًا عَلَى حَياتِهِ.

ثُمَّ أَطالَ تَفْكِيرَهُ وَتَقْدِيرَهُ، وَأَجالَ نَظَرَهُ (أَدارَ فِكْرَهُ) فِي وُجُوهِ الرَّأْيِ الْمخْتَلِفَةِ؛ فَأَيْقَنَ أَنَّ أَيَّ فرس — بالِغًا ما بَلَغَ مِنَ الشَّجاعَةِ — لا يَجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ (الاقْتِرابِ) مِنَ «الْأَصَلَةِ»، بَلْ لا يَجْرُؤُ عَلَى التَّواجُدِ قَرِيبًا مِنْهُ!

ثُمَّ ذَكَرَ الْجَوادَ الْمُجَنَّحَ الَّذِي طالَما تَحَدَّثَ عَنْهُ أَسْلافُهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ طِلْبَتُهُ، وَلَنْ تَتَحَقَّقَ بِغَيْرِهِ رَغْبَتُهُ.

وَذَكَرَ الْوَدِيعَةَ النَّفِيسَةَ (الْغالِيَةَ) الَّتِي وَرِثَها مِنْ أَبِيهِ، وَهِيَ لِجامٌ مَسْحُورٌ مُحَلًّى (مُرَصَّعٌ) بِالْأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ؛ فَعَرَف أَنَّ ذَلكَ اللِّجامَ هُوَ مِفْتاحُ نَجاحِهِ فِي مُهِمَّتِهِ الشَّاقَّةِ.

كانَ هَذا اللِّجامُ الْمَسْحُورُ شَدِيدَ التَّأْثِيرِ فِي الْجِيادِ (الْأَفْراسِ) وَذَلِكَ لِقُوَّتِهِ وَصَلابَتِهِ، فَلَا يُلْجَمُ بِهِ فَرَسٌ — مَهْما يَكُنْ ثائِرًا شَدِيدَ الْجُمُوحِ (الْجَرْيِ وَالْوَثْبِ) وَالاسْتِعْصاءِ عَلَى راكِبِهِ (عَدَمِ الانْقِيادِ لَهُ) — إِلَّا هَدَأَ الْفَرَسُ، بَلْ سُخِّرَ لَهُ تَسْخِيرًا، وَذُلِّلَ لِراكِبِهِ تَذْلِيلًا (انْقادَ لَهُ انْقِيادًا).

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

(١) فِي بِلَادِ الْيُونانِ

أَيْقَنَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» أَنّ الْأَسْبابَ كُلَّها مُتَناصِرَةٌ (مُعِينَةٌ) عَلَى تَحْقِيقِ مَسْعاهُ، وَإِنْجاحِ مُهِمَّتِهِ، وَالْوُصُولِ إِلَى هَدَفِهِ؛ فَسافَرَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى بِلادِ الْيُونانِ، وَما زالَ يَجِدُّ (يُسْرِعُ) فِي سَيْرِهِ، واصِلًا اللَّيْلَ بِالنَّهارِ — عِدَّةَ أَيَّامٍ — حَتَّى بَلَغَ «عَيْنَ الدُّمُوعِ»، وَهُناكَ سَمِعَ مِنَ الْفَتاةِ والطِّفْلِ تِلْكَ الْأُسْطُورَةَ الْمُعْجِبَةَ الشَّائِقَةَ (الْجَذَّابَةَ) الَّتِي حَدَّثْتُكَ بِها، والَّتِي تَبْدُو (تظْهَرُ) — لِغرابَتِها — كَأَنَّها خارِقَةٌ مِنْ خَوارِقِ الْعاداتِ!

وَقَدْ لازَمَهُ ذَلِكَ الطِّفْلُ الشُّجاعُ — كَما قُلْتُ لَكَ — زَمَنًا طَوِيلًا، وَظَلَّ يُجَدِّدُ مِنْ عَزِيمَتِهِ، وَيُقَوِّي مِنْ أَمَلِهِ، حَتَّى لا يَتَسَرَّبَ الْيَأْسُ (لا يَنْفُذَ) إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى قَلْبِهِ، وَلا يَدِبَّ (لا يَمْشِيَ) إِلَيْها الضَّجَرُ، فَيَبُوءَ (فَيَرْجِعَ) بِالْخَيْبَةِ والْخِذْلانِ.

(٢) الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

طالَ انْتِظارُ «فارِسِ الْفَوارِسِ»، وَكاد صَبْرُهُ يَنْفَدُ (يَفْنَى وَيَفْرُغُ)، فَقَرَّرَ أَخِيرًا أَنْ يَعُودَ إِلَى بَلَدِهِ لِيُقاتِلَ «الْأَصَلَةَ» راجِلًا (غَيْرَ راكِبٍ) مُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ، مُعْتَمِدًا عَلَى نَفْسِهِ؛ فَإِمَّا كُتِبَ لَهُ النَّجاحُ وَالْفَوْزُ، وإِمَّا لَقِيَ — فِي سَبِيلِ غايَتِهِ — الْهَلاكَ وَالتَّلَفَ.

وَإِنَّهُ لَيُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ مَهْمُومًا حَزِينًا، إِذْ نَبَّهَهُ الطِّفْلُ الذَّكِيُّ إِلَى صُورَةٍ مُرْتَسِمَةٍ فِي الْماءِ، وَكانا جالِسَيْنِ حِينَئِذٍ — كَعادَتِهِما — بِالْقُرْبِ مِنْ «عَيْنِ الدُّمُوعِ».

فَنَظَرَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» مِنْ فَوْرِهِ إِلَى الْماءِ؛ فَرَأَى صُورَةً، هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِصُورَةِ طائِرٍ يَلُوحُ عَلَى ارْتِفاعٍ شاهِقٍ (عالٍ) فِي الْهَواءِ، وَقَدِ انْعَكَسَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ عَلَى جَناحَيْهِ الْفِضِّيَّيْنِ، فَلَمَعَ مِنْهُما — لِذَلِكَ — بَرِيقٌ أَخَّاذٌ (شَدِيدُ الْأَخْذِ بِالْأَبْصارِ)، وَهُنا أَدْرَكَ أَنَّهُ أَوْشَكَ أَنْ يُحَقِّقَ هَدَفَهُ، وَيَصِلَ إِلَى مَقْصِدِهِ.

فَقال لَهُ الطِّفْلُ بِصَوْتٍ خافِتٍ (غَيْرِ مُرْتَفِعٍ): «إِنَّ هِزَّةَ الْفَرَحِ (نَشاطَ السُّرُورِ) لَتَنْتَظِمُ (تَشْمَلُ) جِسْمِي كُلَّهُ يا سَيِّدِي الْفارِسَ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ — الَّتِي تَراها الْآنَ — إِلَّا صُورَةَ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ الَّذِي رَكِبْتَ الْأَهْوالَ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ، وَالْفَوْزِ بِهِ!»

(٣) على الأعشاب

دَهِشَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» حِينَ رَأَى مَنْظَرَ الْجَوادِ الرَّائِعَ (الَّذِي يَأْخُذُ الْعَيْنَ حُسْنُهُ، وَيُعْجِبُها جَمالُهُ)، وَهُوَ يُحَلِّقُ (يَرْتَفِعُ فِي طَيَرانِهِ) فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ (خِلالَهُ)، وَيَرْسُمُ فِي دَوَرانِهِ الْعالِي دَوائِرَ واسِعَةً جِدًّا، لا تَلْبَثُ أَنْ تَضِيقَ مِساحَتُها كُلَّما دَنا (قَرُبَ) مِنَ الْأَرْضِ، كَما تَفْعَلُ الْحَمائِمُ وَهِيَ تُحَلِّقُ فِي الْجَوِّ، حِينَ تَهُمُّ بِالنُّزُولِ إِلَى مَواضِعِ الْحَبِّ.

إِنَّهُ لَمَنْظَرٌ يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالسُّرُورِ فِي آنٍ واحِدٍ.

وَما إِنِ اسْتَقَرَّ الْجَوادُ الْأَشْهَبُ الْمُجَنَّحُ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى ذَهَبَ إِلَى عَيْنِ الْماءِ، فَشَرِبَ مِنْها ما شاءَ حَتَّى ارْتَوَى.

ثُمَّ أَكَلَ مِنْ زَهَراتِ الْبِرْسِيمِ ما حَلَا لَهُ، حَتَّى شَبِعَ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَعْدُو وَيَقْفِزُ عَلَى الْأَرْضِ، شَأْنُهُ شَأْنُ الْمَرِحِ (النَّشِيطِ الْمُتَبَخْتِرِ) الطَّرُوبِ، وَما لَهُ لا يَفْعَلُ، وَقَدْ طَعِمَ وارْتَوَى؟!

ثُمَ طَوَى الْجَوادُ جَناحَيْهِ، وَرَقَدَ لَحْظَةً يَسِيرَةً عَلَى الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ الْبَهِيجِ النَّدِيِّ (الَّذِي بَلَّلَهُ النَّدَى).

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ انْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ، وَرَفَعَ أَرْجُلَهُ الدَّقِيقَةَ فِي الْهَواءِ، دالًّا عَلَى راحَتِهِ وانْبِساطِهِ.

ثُمَ تَمَرَّغَ زَمَنًا يَسِيرًا عَلَى تِلْكَ الْأَعْشابِ النَّدِيَّةِ النَّاعِمَةِ، وَلَعَلَّ هَذِهِ رِياضَةٌ خاصَّةٌ قَدْ تَعَوَّدَ عَلَيْها هَذا الْجَوادُ.

وَما إِنِ انْتَهَى الْجَوادُ مِنَ الرِّياضَةِ الحَبِيبَةِ إِلَى نَفْسِهِ، حَتَّى مَدَّ قائِمَتَيْهِ الْأَمامِيَّتَيْنِ (يَدَيْهِ)، وَتَأَهَّبَ (اسْتَعَدَّ) لِلْوُقُوفِ وَاسْتِئْنافِ السَّيْرِ مَرَّةً أُخْرَى.

(٤) انْتِهازُ الْفُرصَةِ

وَكانَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» مُمْسِكًا بِيَدِ الطِّفْلِ، وَقَدْ سَحَرَهُما ذَلِكَ الْمَنْظَرُ الْعَجِيبُ الْبَدِيعُ الْأَخَّاذُ، وَهُما يَنْظُرانِ إِلَى الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ، مُخْتَبِئَيْنِ خَلْفَ الْأَعْشابِ الْمُرْتَفِعَةِ، رَيْثَما تَسْنَحُ الْفُرْصَةُ لِتَحْقِيقِ ما يُرِيدانِ.

فَقالَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» لِصاحِبِهِ: «ما أَعْجَبَ هَذا الْفَرَسَ؛ فَإِنِّي لَمْ أَرَ — طُولَ حَياتِي — أَجْمَلَ مِنْهُ مَنْظَرًا، وَلا أَرْوَعَ (أَبْدَعَ وَأَفْتَنَ) مِنْ عَيْنَيْهِ الْواسِعَتَيْنِ، وَقَدْ كادَ اللَّهَبُ يَنْبَعِثُ مِنْ خِلالِهِما!»

وَلَمَّا رَأَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» الْجَوادَ الْمُجَنَّحَ مُتَهَيِّئًا (مُسْتَعِدًّا) لِلْقِيامِ، خَشِيَ أَنْ تَفْلِتَ مِنْهُ هَذِهِ الْفُرْصَةُ النَّادِرَةُ، فَلَا تُتاحَ (لا تَتَهَيَّأَ) لَهُ مَرَّةً ثانِيَةً إِلَى الْأَبَدِ، فَالْفُرْصَةُ قَدْ لا تَأْتِي إِلَّا مَرَّةً واحِدَةً.

فَأَسْرَعَ إِلَى الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ الْأَعْشابِ — فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ — وَقَفَزَ عَلَى ظَهْرِهِ قَفْزَةً قَوِيَّةً جَرِيئَةً، فَلَمْ يُخْطِئِ الْهَدَفَ (الْغَرَض) الْمَقْصُودَ، وَلَمْ تُفْلِتْ مِنْهُ الْفُرْصَةُ، فَقَدِ امْتَطَى صَهْوَةَ الْجَوادِ كالْفارِسِ الْمِغْوارِ.

(٥) هَياجُ الْجَوادِ

وَما إِنِ اسْتَقَرَّ «فارِسُ الْفَوارِسِ» عَلَى ظَهْرِ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ، حَتَّى شَعَرَ الْجَوادُ بِراكِبِهِ؛ فاهْتاجَ غَضَبًا، وَانْتَظَمَتِ الرِّعْدَةُ جِسْمَهُ مِنْ فَرْطِ الْغَيْظِ (سَرَتِ الرِّعْشَةُ فِي جَسَدِهِ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ)، وَقَفَزَ عَلَى الْأَرْضِ قَفَزاتٍ عَنِيفَةً، لِيَدُقَّ عُنُقَ هَذا الْجَرِيءِ الَّذِي اعْتَلَى ظَهْرَهُ.

ثُمَّ ارْتَفَعَ الْجَوادُ طائِرًا، حَتَّى بَلَغَ سَحابَةً عالِيَةً كَثِيفَةً (غَلِيظَةً)، ثُمَّ هَبَطَ فَجْأَةً، فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ، وَانْقَضَّ (سَقَطَ بِقُوَّةٍ) عَلَى الْأَرْضِ، كَما تَنْقَضُّ الصَّاعِقَةُ مِن ارْتِفاعٍ عَظِيمٍ، لا يَقِلُّ عَنْ مِيلَيْنِ!

ثُمَ قَفَزَ الْجَوادُ مَرَّةً أُخْرَى، وَطارَ فِي الْجَوِّ مُسْرِعًا، وَقَدْ جَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى أَسْفَلَ، وَقَدَمَيْهِ إِلَى أَعْلَى؛ فَأَصْبَحَتْ قَدَما الْفارِسِ مَوْضِعَ رَأْسِهِ، وَصارَ مُعَرَّضًا لِلْهَلاكِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ؛ يَفْعَلُ الْجَوادُ كُلَّ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي إِسْقاطِ مَنْ جَرُؤَ عَلَى اعْتِلائِهِ، بِغَيْرِ إِذْنٍ.

ثُمَّ لَوَى الْجَوادُ رَقَبَتَهُ بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، لِيَرَى وَجْهَ راكِبِهِ، وَكانتْ عَيْناهُ تَدُورانِ فِي رَأْسِهِ تَكادانِ تَقْذِفانِ بِالشَّرَرِ، وَهُوَ يُحاوِلُ جُهْدَهُ أَنْ يَعَضَّهُ.

(٦) خُضُوعُ الثَّائِرِ

لكِنَّ «فارِسَ الْفَوارِسِ» الَّذِي لا يَهابُ شَيْئًا وَلا يَخْشَى أَحَدًا وَلا يَنْثَنِي (لا يَضْعُفُ وَلا يَرْجِعُ عَنْ عَزْمِهِ) أَمامَ عَقَبَةٍ بالِغَةٍ ما بَلَغَتْ، وَلا يَغْلِبُهُ غالِبٌ أَيًّا كانَ، تَحَيَّنَ (تَرَقَّبَ) هَذه الْفُرْصَةَ، وَما أَعْظَمَها مِنْ فُرْصَةٍ! فَوَضَعَ الشَّكِيمَةَ (حَدِيدَةَ اللِّجامِ) بَيْنَ فَكَّيِ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ، فَأَحْكَمَ رِتاجَهُ (غَلْقَهُ)، وَما إِنْ فَعَلَ حَتَّى خَضَعَ الْجَوادُ لَهُ، وَتَطامَنَ (خَفَضَ ظَهْرَهُ)، وَذُلِّلَ (انْقادَ) لِراكِبِهِ تَذْلِيلًا.

فَسُبْحانَ مَنْ سَخَّرَ الْكَوْنَ كُلَّهُ لِخِدْمَةِ الْإِنْسانِ!

وَأَصْبَحَ الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ — فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ — أَنِيسًا بَعْدَ وَحْشَةٍ، ساكِنًا بَعْدَ ثَوْرَةٍ، مُتَطامِنًا بَعْدَ جِماحٍ (هادِئًا بَعْدَ تَغَلُّبٍ وَاسْتِعْصاءٍ).

وَنَظَرَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» إِلَى الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ، فَرَآهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ مُبَلَّلَتَيْنِ بِالدُّمُوعِ، بَعْدَ أَنْ كانَتا تَقْدَحانِ لَهَبًا (تُرْسِلانِ نارًا) فَرَبَّتَهُ (تَحَسَّسَهُ بِيَدِهِ مُلاطِفًا، وَضَرَبَ بِها عَلَى جَنْبَيْهِ لِيَسْكُنَ).

وَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ، وَظَلَّ يُماسِحُهُ (يُلاينُهُ فِي الْقَوْلِ لِيُؤْنِسَهُ) جاهِدًا؛ لِيَأْنَسَ بِهِ، وَلِيَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ.

فابْتَهَجَ الْجَوادُ بِما رَآهُ مِنْ عَطْفِ صاحِبِهِ وَأَحسَّ فِيهِ الرَّفِيقَ الْمُؤْنِسَ، والسَّيِّدَ الْبارَّ الْحَبِيبَ، بَعْدَ أَنْ كانَ يَرَى فِيهِ الْخَصْمَ الْعَنِيدَ، وَالْعَدُوَّ اللَّدُودَ.

(٧) وَفاءُ الْجَوادِ الْمُجَنَّحِ

وَهَكَذا تَغَيَّرَتِ الْحالُ، وَأَصْبَحَ الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ — مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ — أَوْفَى صَدِيقٍ لِصاحِبِهِ «فارِسِ الْفَوارِسِ»، وَكَأَنَّهُ كانَ يَبْحَثُ عَنْ رَفِيقٍ، فَوَجَدَ فِيهِ الْآنَ أَرَقَّ صَدِيقٍ.

وَصارَ لا يُطِيقُ فِراقَهُ، وَقَدْ كانَ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ (وَقْتٍ قَصِيرٍ) يَهُمُّ بِدَقِّ عُنُقِهِ (قَتْلِهِ) عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ الشَّامِخِ (الْمُرْتَفِعِ)، فَسُبْحانَ مُغَيِّرِ الْأَحْوالِ، وَمُبَدِّلِ الْأَفْعالِ!

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْجَوادُ عَلَى ذِرْوَةِ الطَّوْدِ الشَّاهِقِ (فَوْقَ رَأْسِ الْجَبَلِ الْعالِي) وَقَفَ يَنْتَظِرُ تَرَجُّلَ صاحِبِهِ (نُزُولَهُ ومَشْيَهُ)، فَقَفَزَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» عَنْ ظَهْرِ الْجَوادِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ مُمْسِكٌ بِلِجَامِهِ الْمَسْحُورِ.

وَنَظَرَ إِلَى عَيْنَيِ الْجَوادِ الْكَرِيمِ، فَراعَهُ (أَعْجَبَهُ) ما يَنْبَعِثُ مِنْ خِلالِهِما مِنْ سِماتِ النُّبْلِ (عَلَاماتِ الْفَضْلِ والذَّكاءِ) وَأَماراتِ الْوَفاءِ، فَرَبَّتَ ظَهْرَهُ مُتَوَدِّدًا، وَقالَ لَهُ مُتَحَبِّبًا: «إِنِّي تارِكٌ لَكَ حُرِّيَّةَ الْبَقاءِ مَعِي، أَوْ تَرْكِي إِذا شِئْتَ، فَلَيْسَ يَسُرُّنِي أَنْ أَصْحَبَكَ قَسْرًا (كَرْها وَإِرْغامًا).»

ثُمَ رَفَعَ لِجامَهُ الْمَسْحُورَ، وَأَطْلَقَ سَراحَ صاحِبِهِ (أَعادَ إِلَيْهِ حُرِّيَّتَهُ) وَقالَ لَهُ: «افْعَلْ ما بَدَا لَكَ، أَيُّها الْجَوادُ النَّبِيلُ، فِإمَّا تَرَكْتَنِي إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، وَإِمَّا لازَمْتَنِي طُولَ الْحَياةِ.»

وَيا لَها مِنْ لَحظاتٍ عَصِيبَةٍ، يُخَيَّرُ فِيها الْجَوادُ بَيْنَ حُرِّيَّةٍ طَلِيقَةٍ، وَبَيْنَ صُحْبَةٍ أَلِيفَةٍ!

فَلَمْ يَقِفِ الْجَوادُ لَحْظَةً، بَعْدَ أَنْ أَطْلَقَ الْفارِسُ سراحَهُ، وَطارَ — مِنْ فَوْرِهِ — فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ (خِلَالَ الْجَوِّ)، حَتَّى غابَ عَنْ ناظِرِهِ.

فَأَيْقَنَ (اعْتَقَدَ) «فارِسُ الْفوارِسِ» بِفِرارِ الْجَوادِ، وَضَياعِ الْفُرْصَةِ مِنْهُ، وَنَدِمَ عَلَى تَسَرُّعِهِ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ.

وَإِنَّهُ لَغارِقٌ فِي نَدَمِهِ وَحُزْنِهِ، إِذْ رَأَى الْجَوادَ الْمُجَنَّحَ عائِدًا إِلَيْهِ، وَهُوَ يُسابِقُ الرِّيحَ فِي طَيَرانِهِ، حَتَّى إِذا داناهُ (اقْتَرَبَ مِنْهُ) هَبَطَ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ إِلَى جانِبِهِ وادِعًا هانِئًا!

فَأَيْقَنَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» أَنَّ فِراسَتَهُ لَمْ تَخِبْ (عَلِمَ أَنَّ صِدْقَ نَظَرِهِ وَصَحِيحَ إِدْراكِهِ لِما سَيَكُونُ لَمْ يُخْطِئَا)، وَعَرَفَ أَنَّ وَفاءَ صاحِبِهِ ثابِتٌ لا يَزُولُ، مَعَ أَنَّ الْوَفاءَ — فِي هَذِهِ الْدُّنْيا — قَلِيلٌ.

وَلَمَّا جاءَ اللَّيْلُ نامَ الصَّدِيقانِ — جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ — وَهُما سَعِيدانِ بِهَذِهِ الصُّحْبَةِ، وَقَدْ لَفَّ الْفارِسُ ذِراعَهُ حَوْلَ رَقَبَةِ الْجَوادِ، وَلَمْ يَعُدْ أَحَدُهُما يُطِيقُ فِراقَ صاحِبِهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ إِذْ تَأَكَّدَتْ بَيْنَهُما الْعَلاقَةُ، وَالْتَحَمَتِ الرُّوحُ بِالرُّوحِ، وَهَلْ هُناكَ عَجَبٌ فِي أَنْ تَلْتَقِيَ رُوحُ الْحَيَوانِ بِرُوحِ الْإِنْسانِ؟!

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

(١) ذِكْرَياتُ الْوَطَنِ

مَرَّتِ الْأَيَّامُ سَعِيدَةً هانِئَةً، وَقَدِ اشْتَدَّتْ أُلْفَةُ الصَّدِيقَيْنِ (مَوَدَّتُهُما) يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَوَدَّ (تَمَنَّى) «فارِسُ الْفَوارِسِ» لَوْ قَضَى بَقِيَّةَ عُمْرِهِ ناعِمًا بِتِلْكَ الْحَياةِ الْوادِعَةِ (الْهادِئَةِ) الطَّيِّبَةِ (الْهانِئَةِ)، وَلَكِنَّ نِداءَ الْواجِبِ، وَذِكْرَياتِ الْوَطَنِ، وَاحْتِفاظَهُ بِالْوَعْدِ الَّذِي أَخَذَ نَفْسَهُ بِإِنْجازِهِ (بِتَحْقِيقِهِ) أَمامَ مَلِيكِ بِلادِهِ، وَرَغْبَتَهُ فِي إِنْقاذِ الْأَهْلِينَ مِنَ «الْأَصَلَةِ»، كُلُّ أُولئِكَ قَدْ أَرْغَمَهُ (أَكْرَهَهُ) عَلَى اقْتِحامِ تِلْكَ الْمُغامَرَةِ (دُخُولِ تِلْكَ الْمُخاطَرَةِ) بِنَفْسِهِ بِرًّا بِوَطَنِهِ، وَإِرْضاءً لِضَمِيرِهِ.

(٢) فِي وادِي التِّنِّينِ

باتَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» يَحْلُمُ — سَوادَ لَيْلِهِ — بِتَحْقِيقِ غايَتِهِ، حَتَّى إِذا طَلَعَ الْفَجْرُ نَهَضَ مُمْتَلِئًا حَماسَةً (شَجاعَةً) وَثِقَةً، وَرَبَّتَ ظَهْرَ جَوادِهِ، لِيُوقِظَهُ.

ثُمَّ أَفْطَرا مَعًا، وَشَرِبا مِنْ عَيْنٍ قَرِيبَةٍ. ثُمَّ مَدَّ الْجَوادُ رَقَبَتَهُ إِلَى صاحِبِهِ، لِيَضَعَ بِيَدِهِ اللِّجامَ.

وَتَقَلَّدَ (لَبِسَ) «فارِسُ الْفَوارِسِ» عُدَّةَ الْحَرْبِ، وَاعْتَلَى ظَهْرَ الْجَوادِ، وَأَدارَ رَأْسَهُ شَطْرَ الْمَشْرِقِ (ناحِيَةَ الشَّرْقِ وَجِهَتَهُ)، فَطارَ يُسابِقُ الرِّيحَ فِي طَيَرانِهِ.

وَما زالَ الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ يَطِيرُ، حَتَّى وَصَلَ فِي ضُحَى الْيَوْمِ إِلَى وادِي «الْأَصَلَةِ»، وَهُوَ — كَما قُلْتُ لَكَ — قَرِيبٌ مِنْ مَوْطِنِ الْفارِسِ.

فَأَشارَ إِلَى جَوادِهِ أَنْ يَهْبِطَ (يَنْزِلَ) بِهِ وادِيَ التِّنِّينِ.

وَأَدْرَكَ الْجَوادُ غَرَضَ صاحِبِهِ، فَهَبَطَ إِلَى سَحابَةٍ كَثِيفَةٍ فَوْقَ رَأْسِ الْجَبَلِ، حَتَّى لَا يَفْطُنَ التِّنِّينُ (لا يَشْعُرَ وَلا يَنْتَبِهَ) إِلَى مَجِيئِهِما، فَيَفْتِكَ بِهِما — عَلَى عادَتِهِ — ولا يُبْقِيَ لَهُما عَلَى أَثَرٍ.

(٣) آثارُ التِّنِّينِ

نَظَرَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» مِنْ عَلٍ (مِنْ عالٍ) إِلَى بَطْنِ الْوادِي؛ فَرَأَى فِيهِ ما يَحْزُنُ وَيُؤْلِمُ وَيُفَزِّعُ، وَيَمْلَأُ النَّفْسَ حَسْرَةً وَأَسًى، رَأَى أَطْلالَ الدِّيارِ (ما بَقِيَ مِنْ آثارِها الْخَرِبَةِ) الَّتِي دَمَّرَها التِّنِّينُ الْهائِلُ!

كَما رَأَى عِظامَ الدَّوابِّ وَالْماشِيَةِ الَّتِي قَتَلَها وَحَرَّقَ أَجْسادَها، فَقالَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» فِي نَفْسِهِ: «ما أَشُكُّ فِي أَنَّ هَذِهِ بَعْضُ آثارِ «الْأَصَلَةِ»، فَكَيْفَ أَهْتَدِي إِلَى هَذا التِّنِّينِ الشِّرِّيرِ؟»

وَفِيما هُو يُفَكِّرُ فِي هَذا الْوَحْشِ الْمُفْتَرِسِ، أَبْصَرَ ثَلَاثَةَ أَعْمِدَةٍ مِنَ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ ذاهِبَةً فِي الْجَوِّ، حَتَّى إِذا قارَبَتْ قِمَّةَ الْجَبَلِ (أَعْلاهُ) امْتَزَجَتْ جَمِيعًا، فَأَصْبَحَتْ عَمُودًا واحِدًا مِنَ الدُّخَانِ الْقاتِمِ (الشَّدِيد السَّوادِ).

(٤) فِي غارِ «الْأَصَلَةِ»

أَدْرَكَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» — حِينَئِذٍ — أَنَّ غارَ التِّنِّينِ (الْمَغارَةَ الَّتِي يَسْكُنُها الثُّعْبانُ فِي الْجَبَلِ) قَرِيبٌ مِنْهُ.

فَأَشارَ إِلَى جَوادِهِ الذَّكِيِّ أَنْ يَهْبِطَ الْوادِيَ، فَعَرَفَ «الْمُجَنَّحُ» غَرَضَ صاحِبِهِ، فَهَبَطَ قَلِيلًا قَلِيلًا — فِي حَذَرٍ شَدِيدٍ — حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى ارْتِفاعِ مِتْرَيْنِ مِنْ قاعِ الْوادِي الصَّخْرِيِّ، فَرَأَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» غارَ «الْأَصَلَةِ» أَمامَهُ.

وَنَظَرَ فَإِذا جِسْمٌ فِي مِثْلِ ضَخامَةِ الْجَبَلِ، مُلَفَّفٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ!

وَأَبْصَرَ ثَلَاثَةَ رُءُوسٍ، فَإِذا هُوَ يَرَى: رَأْسَ ثُعْبانٍ هائِلٍ، وَرَأْسَ أَسَدٍ كاشِرٍ (بارِزِ الْأَنْيابِ، اسْتِعْدادًا لِلافْتِراسِ)، وَرَأْسَ ماعِزَةٍ شَرِسَةٍ مُفَزِّعَةٍ!

وَأَمْعَنَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» نَظَرَهُ فِي رُءُوسِ «الْأَصَلَةِ» الثَّلَاثَةِ، فَرَأَى رَأْسَ الْأَسَدِ وَرَأْسَ الْماعِزَةِ نائِمَيْنِ.

أَمَّا رَأْسُ الثُّعْبانِ، فَرَآهُ مُسْتَيْقِظًا يَدُورُ بِعَيْنَيْنِ مُلْتَهِبَتَيْنِ فِي مِثْلِ احْمِرارِ الْجَمْرِ.

وَهالَهُ أَنْ رَأَى أَعْمِدَةَ الدُّخانِ الثَّلَاثَةَ السُّودَ مُتَصاعِدَةً مِنْ أُنُوفِ تِلْكَ الرُّءُوسِ الثَّلَاثَةِ، جَمِيعًا.

وَقَدْ خَيَّلَ إِلَيْهِ الْوَهْمُ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْغارِ ثَلَاثَةَ وُحُوشٍ هائِلَةً، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا «الْأَصَلَةُ»!

(٥) رَأْسُ الْماعِزَةِ

وَحَمْحَمَ الْجَوادُ الْمُجَنَّحُ (رَدَّدَ صَوْتَهُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْفَزَعِ) صاهِلًا؛ فانْدَفَعَ رَأْسُ الثُّعْبانِ — فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ — إِلَى خارِجِ الْغارِ، وَمَدَّ فَكَّيْهِ الْهائِلَيْنِ لِيَلْتَقِمَ فَرِيسَتَهُ، وَهُوَ يُمَزِّقُ الْهَواءَ — غاضِبًا — بِذَيْلِهِ وَرُءُوسِهِ الثَّلاثَةِ الْهائِلَةِ!

فَلَمْ يَنْخَلِعْ قَلْبُ «فارِسِ الْفَوارِسِ» لِهَذا الْمَنْظَرِ الْمُفَزِّعِ، وَلَمْ تَخُنْهُ شَجاعَتُهُ وَرَباطَةُ جَأْشِهِ (لَمْ يَخْذُلْهُ ثَباتُ قَلْبِهِ، وَلَمْ تُفارِقْهُ طُمَأْنِينَتُهُ)، بَلِ اشْتَدَّ بَأْسُهُ (عَظُمَتْ شَجاعَتُهُ) وضُوعِفَتْ قُواهُ، وأُلْهِبَتْ حَماسَتُهُ.

فَصَبَرَ عَلَيْهِ، وَهَمَزَ جَوادَهُ هَمْزَةً خَفِيفَةً، آخِذًا بِعِنانِ (سَيْرِ لِجامِ) فَرَسِهِ نَحْوَ الْهَدَفِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: «أَعِنِّي (ساعِدْنِي) أَيُّها الْجَوادُ الْحَبِيبُ، عَلَى أداءِ واجِبِي الْإِنْسانِيِّ النَّبِيلِ؛ فَقَدْ آلَيْتُ (أَقْسَمْتُ وَحَلَفْتُ) عَلَى نَفْسِي — صادِقًا — أَنْ أَقْتُلَ هَذا الْعَدُوَّ الشَّرِسَ (الْعَنِيفَ الْغَلِيظَ الطَّبْعِ)، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ!»

فانْقَضَّ (أَجْهَزَ) الْمُجَنَّحُ عَلَى «الْأَصَلَةِ»، حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى قِيدِ (مَسافَةِ) ذِراعٍ مِنْهُ، فَأَهْوَى (نَزَلَ) «فارِسُ الْفَوارِسِ» عَلَى عَدُوِّهِ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ مُسَدَّدَةٍ (صائِبَةٍ) قاتِلَةٍ.

وَما إِنْ فَعَلَ حَتَّى عادَ بِهِ الْجَوادُ إِلَى الْوَراءِ فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ، لِيَأْمَنَ شَرَّ عَدُوِّهِ الثَّائِرِ الْمُحْتَنِقِ الْمَغِيظِ.

ثُمَّ انْقَضَّ الْفارِسُ بِفَرَسِهِ الشُّجاعِ عَلَى عَدُوِّهِ اللَّدُودِ، فَلَمَّا داناهُ (اقْتَرَبَ مِنْهُ) عَرَفَ أَنَّهُ قَطَعَ رَأْسَ الْماعِزَةِ، فامْتَلَأَتْ نَفْسُ الْفارِسِ فَرَحًا وَثِقَةً وَحَماسَةً بِنَجاحِ مَسْعاهُ، فَما أَعْظَمَ الْوُصُولَ إِلَى الْهَدَفِ الْمَنْشُودِ!

(٦) رَأْسُ الْأَسَدِ

لكِنَّ قُوَّةَ «الْأَصَلَةِ» تَجَمَّعَتْ فِي رَأْسَيِ الْأَسَدِ وَالثُّعْبانِ، وَاشْتَدَّتْ شَراسَةُ «الْأَصَلَةِ»، وَظَلَّ رَأْساهُ يَقْذِفانِ اللَّهَبَ، وَيَرْمِيانِ بِالْجَمْرِ وَالنَّارِ إِلَى أَبْعَدِ مَدًى.

وانْدَفَعَ الْمُجَنَّحُ بِصاحِبِهِ، فِي انْحِرافٍ (تَجَنُّبٍ شَدِيدٍ) — كما فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ — حَتَّى إِذا دانَيا (قارَبا) «الْأَصَلَةَ» عاجَلَ الفارِسُ أَحَدَ الرَّأْسَيْنِ الْآخَرَيْنِ بِضَرْبَةٍ — مِنْ سَيْفِهِ — مُسَدَّدَةٍ (صائِبَةٍ).

ثُمَ طارَ الْفَرَسُ بِراكِبِهِ، وَلَمْ يَسْلَما — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — كَما سَلِما فِي سابِقَتِها؛ فَقَدْ لَمَسَ فَكُّ الْأَصَلَةِ «فارِسَ الْفَوارِسِ» وَجَوادَهُ؛ فَمَزَّقَ كَتِفَ الْفارِسِ، وَأَصابَ جَناحَ الْجَوادِ إِصابَةً خَفِيفَةً.

عَلَى أَنَ «فارِسَ الْفَوارِسِ» قَطَعَ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — رَأْسَ الْأَسَدِ، كَما قَطَعَ — فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ — رَأْسَ الْماعِزَةِ.

(٧) رَأْسُ الثُّعْبانِ

تَجَمَّعَتْ قُوَى «الْأَصَلَةِ» كُلُّها فِي رَأْسِ الثُّعْبانِ؛ فَخَرَجَ مِنْهُ عَمُودٌ كَثِيفٌ مِنَ الدُّخانِ الْأَسْوَدِ، وَصارَ يَقْذِفُ — مِنْ فِيهِ (فَمِهِ) — سُيُولًا مِنَ الْجَمْرِ واللَّهَبِ، يَبْلُغُ طُولُها خَمْسَمِائَةِ مِتْرٍ، أَوْ يَزِيدُ!

وَرَأَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» أَمامَهُ رَأْسَ «الْأَصَلَةِ»، وَقَدْ تَلَظَّى (اشْتَعَلَ) فِي عَيْنَيْهِ اللَّهَبُ، فانْقَضَّ (هَوَى بِسُرْعَةٍ) الْفارِسُ عَلَيْهِ انْقِضاضَ الصَّاعِقَةِ.

وَقابَلَهُ عَدُوُّهُ اللَّدُودُ بِمِثْلِ ما فَعَلَ، فَأَلْقَى بِجِسْمِهِ الْهائِلِ عَلَى الْفَرَسِ الْمُجَنَّحِ، وَالْتَفَّ عَلَيْهِ.

فارْتَفَعَ الْجَوادُ فِي أَعالِي الْجَوِّ، حَتَّى أَصْبَحَ فِي ارْتِفاعٍ هائِلٍ، أَعْلَى مِنْ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ الشَّامِخِ، وَلكِنَّ التِّنِّينَ الْجَبَّارَ ظَلَّ مُتَعَلِّقًا بِهِ.

وَرَأَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» — عِنْدَئِذٍ — خَطَرَ عَدُوِّهِ اللَّدُودِ، وَخَشِيَ أَنْ يُحْرِقَهُ التِّنِّينُ بِما يَقْذِفُهُ مِنَ اللَّهَبِ، فَأَغْمَدَ (أَدْخَلَ) سَيْفَهُ فِي صَدْرِ التِّنِّينِ.

فَتَصاعَدَتْ مِنْهُ النَّارُ الْمَخْزُونَةُ فِي جَوْفِهِ، وَأَحْرَقَتْ جِسْمَ التِّنِّينِ الْهائِلِ، فَسَقَطَ مِنْ أَعْلَى الْجَوِّ مَيِّتًا.

وَأَراحَ اللهُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ وَأَذاهُ.

وَهَكَذا تَمَّ الْفَوْزُ لِبَطَلِ قِصَّتِنا «فارِسِ الْفَوارِسِ»، فانْحَنَى عَلَى جَوادِهِ الْمُجَنَّحِ، وَظَلَّ يُقَبِّلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، شاكِرًا لَهُ ما أَسْدَى (ما قَدَّمَ) إِلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ (مَعْرُوفٍ وَجَمِيلٍ)، وَقالَ لَهُ: «سَلِمْتَ أَيُّها الْجَوادُ النَّبِيلُ، فَلَوْلاكَ لَما كُتِبَ لِيَ النَّصْرُ عَلَى هَذا الْعَدُوِّ الْهائِلِ اللَّدُودِ.»

(٨) عَوْدَةُ الْمُنْتَصِرِ

وَلَمَّا تَمَّ الْفَوْزُ لِصاحِبِنا «فارِسِ الْفوارِسِ»، وَكُتِبَ لَهُ النَّصْرُ الْمُبِينُ عَلَى عَدُوِّهِ الْفَتَّاكِ، حَمِدَ اللهَ — سُبْحانَهُ — وَأَثْنَى عَلَيْهِ، لِما وَفَّقَهُ إِلَيْهِ مِنْ نَجاحٍ، وَيَسَّرَهُ لَهُ مِنْ تَوْفِيقٍ. ثُمَّ انْحَنَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» عَلَى جَوادِهِ الْمُجَنَّحِ، وقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَدُمُوعُ الْفَرَحِ تَذْرِفُ مِنْ مَآقِيهِ (تَسِيلُ مِنْ مَنافِذِ دُمُوعِهِ)، وَقالَ لَهُ فِي تَأَثُّرٍ وَهُوَ يُرَبِّتُ ظَهْرَهُ (يُلَاطِفُهُ): «أُكَرِّرُ شُكْرِي لَكَ أَيُّها الْجَوادُ الْأَصِيلُ، عَلَى ما بَذَلْتَ مِنْ جُهْدٍ. وَلَنْ أَنْسَى لَكَ ما حَيِيتُ هَذا الصَّنِيعَ النَّبِيلَ! إِنَّكَ طَوَّقْتَ عُنُقِي بِجَمِيلٍ لا أَنْساهُ أَبَدًا ما حَيِيتُ! فَلْنَعُدْ إِلَى «عَيْنِ الدُّمُوعِ»، لِنَلْقَى رَفِيقَنا الْكَرِيمَ الَّذِي كانَ لَهُ الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي اهْتِدائِي إِلَيْكَ.»

الْفَصْلُ الْخامِسُ

(١) اجْتِماعُ الشَّمْلِ

وَما إِنْ أَتَمَّ «فارِسُ الْفَوارِسِ» قَوْلَهُ، حَتَّى أَسْرَعَ بِهِ «الْمُجَنَّحُ»، وَما زالَ يَطِيرُ — وَهُوَ يُسابِقُ الرِّيحَ فِي طَيَرانِهِ — حَتَّى بَلَغَ «عَيْنَ الدُّمُوعِ».

وَثَمَّةَ (هُناكَ) رَأَى «فارِسُ الْفَوارِسِ» صاحِبَهُ الشَّيْخَ الزَّارِعَ مُتَّكِئًا عَلَى عَصاهُ، وَإِلَى جانِبِهِ فَتاةٌ قَرَوِيَّةٌ تَجُرُّ بَقَرَتَها الظَّرِيفَةَ. وَحانَتْ (عَرَضَتْ) مِنْهُ الْتِفاتَةٌ أُخْرَى، فَرَأَى الْفَتاةَ — الَّتِي رَآها مِنْ قَبْلُ — تَقْتَرِبُ مِنَ الْعَيْنِ، لِتَمْلَأَ جَرَّتَها، فَقالَ لَهُمْ: «أَيْنَ الْغُلامُ الْكَرِيمُ الَّذِي كانَ يَقْضِي مَعِي — فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ — أَجْمَلَ السَّاعاتِ الَّتِي عِشْتُها فِي حَياتِي؟ أَعْنِي: ذَلِكُمُ الْغُلَامَ الصَّادِقَ الْفِراسَةِ، الْبارِعَ الْمُلاحَظَةِ، الْمُتَفَرِّدَ فِي فَطانَتِهِ (الَّذِي لا مَثِيلَ لَهُ فِي ذَكائِهِ)؟!»

فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ الْغُلامُ الذَّكِيُّ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مُرَحِّبًا بِهِ، وَقالَ لَهُ فِي لَهْجَةٍ كُلُّها حُنُوٌّ وَإِخْلَاصٌ: «هَا أَنَا ذا صاحِبُكَ، أَيُّها الْفارِسُ النَّبِيلُ، وَلا أَزالُ أَرْقُبُ عَوْدَتَكَ فائِزًا عَلَى عَدُوِّكَ، فَخَبِّرْنِي بِرَبِّكَ: أَلَمْ تُحْرِزِ النَّصْرَ الْباهِرَ عَلَى خَصْمِكَ الْعَنِيدِ؟ ما أَشُكُّ فِي نَجاحِكَ وَتَوْفِيقِكَ، أَيُّها الشُّجاعُ الْحازِمُ الْجَرِيءُ، فَمِثْلُكَ — وَهُوَ صاحِبُ جُرْأَةٍ وَإِقْدامٍ — لا يُخْطِئُ هَدَفَهُ، وَلا يَذْهَلُ عَنْ مَقْصِدِهِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فَقالَ لَهُ «فارِسُ الْفَوارِسِ»: «لَقَدْ تَمَّ لِيَ النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّي بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللهِ، وَشَجاعَةِ هَذا الْجَوادِ، وَصِدْقِ فِرَاسَتِكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَما نَجَحْتُ فِي مَسْعايَ، وَلا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَقْتُلَ «الْأَصَلَةَ»، وَلَوْ كانَ مَعِي فُرْسانُ الْأَرْضِ جَمِيعًا.»

(٢) حُرِّيَّةُ الْمُجَنَّح

ثُمَّ رَفَعَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» لِجامَ فَرَسِهِ، وَقالَ لَهُ شاكِرًا: «الْآنَ أَرُدُّ إِلَيْكَ حُرِّيَّتَكَ؛ فاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ، وَإِنْ كُنْتُ لا أُطِيقُ فِراقَكَ، أَيُّها الْجَوادُ النَّبِيلُ!»

وَلٰكِنَّ الْجَوادَ الْمُجَنَّحَ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَتِفِ الْفارِسِ، وَلَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكانِهِ، لِأَنَّهُ أَلِفَ عِشْرَتَهُ، وَلَمْ يَعُدْ يَصْبِرُ عَلَى فِراقِهِ، وَكَيْفَ يَصْبِرُ الْإِلْفُ عَلَى فِراقِ إِلْفِهِ؟! وَكَيْفَ يَصْبِرُ الْحِبُّ عَلَى فِراقِ حِبِّهِ؟!

فَقالَ لَهُ «فارِسُ الفَوارِسِ»، وَهُوَ يُداعِبُهُ وَيُمازِحُهُ: «أَلْفُ شُكْرٍ لَكَ عَلَى وَفائِكَ النَّادِرِ الْعَجِيبِ، فَلْنَذْهَبْ إِلَى مَلِيكِ الْبِلَادِ، لِنَزُفَّ (نُهْدِيَ) إِلَيْهِ نَبَأَ انْتِصارِنا عَلَى عَدُوِّهِ الْمُفَزِّعِ (الْمُخَوِّفِ) الْمَرْهُوبِ.»

(٣) ابْتِهاجُ الْأَهلِينَ

ثُمَّ وَدَّعَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» صاحِبَهُ رَفِيقَ رِحْلَتِهِ، وَوَعَدَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ.

ثُمَّ طارَ بِهِ «الْمُجَنَّحُ»، وَظَلَّ يُمْعِنُ (يَذْهَبُ بَعِيدًا) فِي طَيَرانِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ أَرْضَ الْوَطَنِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَأَسْرَعَ «فارِسُ الْفَوارِسِ» إِلَى مَلِيكِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِما كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنْ نَجاحٍ، وَيَسَّرَهُ (سَهَّلَهُ) لَهُ مِنْ تَوْفِيقٍ.

وَلا تَسَلْ عَنِ ابْتِهاجِ الْمَلِكِ بِما سَمِعَ.

وَفَرِحَ الْأَهْلُونَ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ التِّنِّينَ الْخَبِيثَ قَدْ صَرَعَتْهُ يَدُ فارِسِهِمُ الْعَظِيمِ.

(٤) خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَقَدْ خَلَّدَ النَّاسُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — اسْمَ «فارِسِ الْفَوارِسِ»، وَسَلَكُوهُ (جَعَلُوهُ وَاعْتَبَرُوهُ) فِي عِدادِ الْأَبْطالِ الْماجِدِينَ. وَأَصْبَحَ اسْمُهُ دَوْمًا عَلَمًا (مَعْرُوفًا مَشْهُورًا) بَيْنَهُمْ، وَصارَتْ شَجاعَتُهُ مَضْرِبَ الْأَمْثالِ.

وَلَمْ يَنْسَ الْأَهْلُونَ لِلْبَطَلِ الْعَظِيمِ ذَلِكَ الصَّنِيعَ الْجَلِيلَ، كَما أَنَّ «فارِسَ الْفَوارِسِ» لَمْ يَنْسَ فَضْلَ صاحِبَيْهِ: الْغُلَامِ وَالْفَرَسِ، وَظَلَّ يَذْكُرُ لَهُما ذَلِكَ الْوَفاءَ طُولَ الْحَياةِ، مُتَمَنِّيًا أَنْ

يَشِيعَ هَذا الْخُلُقُ بَيْنَ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ، حَتَّى يَعِيشَ النَّاسُ فِي وِئَامٍ، وَيَحْظَوْا — جَمِيعًا — بِالْمَحَبَّةِ وَالسَّلامِ.